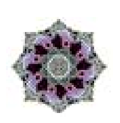
نبيل شحاده

سنتان في بيروت

ترجمة وتحليل لما كتبه المصرفي الايرلندي

جيمس لويس فارلي

عن اقامته في بيروت بين العامين 1856 و1858 ميلادية



جمعية تراثنا بيروت

المقدمة

جيمس لويس فارلي ,ايرلندي من مواليد عام 1823 ، عمل كمصرفي ودبلوماسي , ومنذ نشأته لفت انتباهه الشرق بكل ما فيه من سحر و غرابة حتى تحقق له العيش في ربوعه والكتابة عنه , وكيف لا يكون ذلك في بيروت , وهي درة هذا الشرق و ياقوتة شواطئه.

ساهم "فارلي" في تأسيس البنك العثماني في عام 1856 كمصرف مركزي للسلطنة العثمانية, وخاصة فرعه في بيروت الذي تولى فيه منصب كبير المحاسبين وساهم في انجاحه كثيرا قبل الانتقال الى إسطنبول في عام 1860 حيث عُيّن محاسبًا عامًا للبنك هناك.

صدر كتابه "سنتان في سوريا" عام 1858 , وقدّم له باختصار معتبرا ان ما احتواه من معلومات , موجه الى "الأصدقاء في الوطن" وخاصة العاملين في القطاع التجاري داعيا لهم للحضور الى هذا الركن من العالم وخاصة بيروت لما تشكّله لهم من فرص عمل ناجحة وتحقيق لأرباح و جمع لثروات.

تضمن الكتاب أجزاء كبيرة , خُصصت لبيروت (كجزء من سوريا ومثال لها) التي عاش فيها "فارلي" وتعرف الى كل ما فيها, مع سرد للمصاريف المتوقعة للسائح إضافة الى الكثير من التفاصيل الدقيقة حول مختلف مظاهر الحياة في المدينة ,بدءا من المناخ الى التجارة و والأسواق وطرقات المدينة وتطورها ,والفنادق والنزهات في شوارعها وعلى شواطئها وفي غابة الصنوبر في جنوبها , ولا يغيب عن بال "فارلي" الحديث عن الحياة الاجتماعية فيها والتقاليد والعادات السائدة آنذاك.

و رغم أن الكتاب يحتوي فصولا مطولة عن زيارات و رحلات قام بها "فارلي" الى مناطق أخرى في لبنان وسوريا و فلسطين , الا انني آثرت أن اترجم من الانكليزية و أحلل و اركّز على ما ورد فيه بشأن مدينتنا بيروت , وأيضا , على الأهم مما كان يجري فيها, وأسميت هذا العمل "سنتان في بيروت".

سآخذكم مع هذا الكتاب , معتمدا على نسخة "مكتبة جامعة برينستون" في رحلة ساحرة , ونغوص في الزمن الماضي , مستكشفين معاً , جَمَال بيروت وروعة المشاهد فيها آنذاك, مسجّلين لفارلي تمتعه بملكة الكتابة بأناقة واضحة وصّف فيها انفعالاته وأحاسيسه بشفافية وشاعرية مع بعض النفحات الدينية التي أراد ابرازها عند الوقوف أمام الطبيعة وعظمتها, وحاولت قدر الإمكان نقل كل ذلك الى العربية بنفس الروح والشغف.

الوصول الى بيروت

وصل "جيمس لويس فارلي" الى بيروت في العام 1856 , ويمهّد الوصول اليها بالقول : "قلة قليلة من الناس ، يعرفون أي شيء عن بيروت ، وهي مكان ، ينضح جمالاً خلاباً لا مثيل له في سوريا ، مثلما يتفوق على كل ما عداه في الأهمية التجارية".

ثم يسرح مع المسافرين الذين يصلون الى بحر بيروت , فتثير فيهم المناظر الخلابة مشاعر جيّاشة فيصرخ الواحد منهم من شدة التأثر, لدى رؤيته هذا المشهد: "بيروت الجميلة" , معللا جمالها بأنه "ليس فقط شريط ذاكرة ، مغمور بألف معنى عميق ومشعّ بألوان مشرقة ، يجعل منها أرقى مناطق الأرض ، بل من خلال الإقامة داخل أسوارها ، حيث الواقع يضاهي خيالا" أكثر الصور التي قد تخطر على بال.

ثم يأخذنا "فارلي" الى تتبع لقطات سريعة مؤثرة تأخذ الأنفاس عن جمال بيروت الساحر ومحيطها فيقول :"و ليس فقط المشهد الرائع ، حيث الجبل بطياته المخملية ، وشلالاته التي تشبه الخيوط الفضية ، والقمم التي تعلوها الثلوج . وليس فقط الشواطئ الذهبية ، والحدائق الغنية التي تمتد وراء أسوارها الشاهقة ، والقرى ذات الهواء المنعش والمشاهد الرومانسية مع حظائر دود القز . وليس فقط البحر الأرجواني والسماء الوردية .و ليست كل هذه فقط تزين بيروت القديمة بمثل هذا المجد".

لا يكتفي "فارلي" بما سبق , ولا يدع لنا وقتا و لو قليلا للراحة , فيطلق مجددا دفعة متواصلة من الصور المتألقة لتتلاعب بعقولنا التي غاصت في بحر السنين البعيدة , وهي تحاول صنع صورة تشكيلية أو سريالية لما رأه هذا الايرلندي الوافد الذي يقول :"لا يوجد مكان ستجد فيه منظرا أكثر روعة مما تراه العين ونحن نقترب من بيروت, و من مكانك في البحر ، ترى قمم جبل لبنان مرتفعة عالية، تلمعُ تحت ضوء الشمس ، وتحيط بها خطوط عريضة من التلال المتموجة ، فيبدو المشهد وكأنّ جزيرة خرافية تطفو في السماء".

ويزيد "فارلي" من جرعة الدهشة والافتتان فيعترف لنا :"عند الاقتراب من شواطئ معظم البلدان فلن تجد شيئا يستحق رؤيته , أما هنا فسترى مشهدا طبيعيا رائعا يستحيل ان تتخيله اوتعثر على شبيه له في مكان آخر. وبينما تواصل السفينة الاقتراب من الساحل يتوسّع المشهد , ويكشف عن سحره , حيث ترى البيوت تتناثر فوق السهل الذي يمتد بين البحر والجبل ، وتتألق تحت أشعة الشمس في وسط الأشجار التي تحيط بها ، ويأتي النسيم من البرّ محملاً بروائح بساتين البرتقال. أنت الآن في خليج بيروت, حيث يمتد نتوء جبلي طويل في البحر ، وهناك في البعيد سترى أبراج ومآذن المدينة ، ومن خلفها تظهر قمة جبل صنين المغطاة بالثلوج".

ومثل غيره من الرحالة و المسافرين الأجانب , ممن فتنتهم بيروت وموقعها الجغرافي الفريد , فتخيّلوها أنثى ترتاح في مكانها, يتابع "فارلي" فيقول :"تستحق بيروت أن تكون عاصمة هذا البلد الجميل, فهي تمتد نزولا إلى الشاطئ ، وتنزل عبر منحدر لطيف لتل ساحر ، فيما رأسها في الغيوم ، وقدميها في مياه البحر , وكأنها سلطانة ساحرة تتكأ برشاقة على وسادة من المخمل الأخضر ، تشاهد الأمواج بلا مبالاة وكسل حالم".

هل انتهى "فارلي" من توصيفه و نعوته لبيروت ؟ . طبعا لا , لأنه يواصل كشفه لنا كم هو منشغف بهذه المدينة , و يلقي الينا مزيدا من الطعوم -وكأننا سمك - يبحث عن ما يسكت صرخات جوعنا الذي لا ينتهي الى بيروت القديمة , فيقول :" شرفات بيروت مليئة بالزهور وبيوتها بأقواسها النحيفة وسقوفها المسطحة ، يعلوها كوّات من الحجر أو درابزينات من الخشب, وهناك بساتين أشجار التوت الأبيض المنتشرة حول جوانبها ؛ وأشجار النخيل المحلقة نحو السماء,والألوان الحية لجدرانها المطلية باللون الأحمر أو الأزرق , ومآذن مساجدها, وجوّها الهادئ والمشرق دائما وسماؤها الصافية والمفتوحة , ليندمج كل هذا في لوحة واحدة كبيرة وجذابة".

مناخ بيروت

نواصل رحلتنا في تاريخ بيروت ومع "فارلي" الذي منح مناخ بيروت أهمية تفوق على غيرها من المدن فيصفه بأنه "متفوق بلا ريب على معظم تلك الأماكن التي يرتادها عادة المرضى والأشخاص ذوو المزاج الواهن كجنوب فرنسا و إيطاليا, وكذلك, أولئك الأشخاص المعرضّين للأمراض الرئوية ، فإنه, أي مناخ بيروت يوفّر مزايا مهمة من الصعب العثور عليها في مكان آخر".

ويفاجأنا "فارلي" بأنه خلال اقامته في بيروت ومعرفته شخصياً بجميع الأوروبيين المقيمين فيها , إضافة الى كثيرين من ابناء العائلات البيروتية , لم يسمع "عن حالة مرضية واحدة" ويتابع مؤكدا انه "لا توجد أمراض وبائية في البلاد , و الربو والتهاب الشُعب الهوائية والاضطرابات الرئوية غير معروفة" ولكن من الضروري فقط أخذ الاحتياطات البسيطة لتجنب البرد للحفاظ على الصحة بحالة ممتازة".

أظن ان السبب الرئيس الذي يدعو "فارلي" الى الغرق في وصف مناخ بيروت بأنه الأفضل وخاصة "لمن يعانون من أمراض الرئتين" هو محاولة حثيثة منه لاقناع رجال الأعمال الأوروبيين للقدوم الى بيروت وبدء أعمالهم التجارية محاولا اغراءهم بأجواء مثالية تريحهم من تقلبات المناخ الأوروبي وعواصفه و أمطاره ورياحه العاتية , فيقول :"دائمًا ما يكون الجو هنا صافيا ومعتدلًا ، ولا يخضع لتقلبات مفاجئة للبرودة والحرارة ؛ وهو ملائم تماما للذين يعانون من أي شكل من أشكال أمراض الرئتين بسبب عدم وجود رياح عاتية".

لا يكتفي "فارلي" بنظرته الشخصية للمناخ في بيروت , بل يؤيده بكلام علمي يصدر عن طبيب مشهود له زار بيروت في عام 1838، وهو الدكتور ويليام روبرت وايلد , الذي نشر العديد من التفاصيل القيمة عن مناخات عدة مدن تطل على ساحل البحر المتوسط فينقل عنه هذه الفقرة :" توفّر بيروت الكثير من الإغراءات للمرضى المسافرين ، وللأسر الراغبة في زيارة سوريا ، ولا شك في أنها ستشكل إقامة شتوية ممتعة وصحية لهم. مناخها معتدل وقابل للتغيير بشكل أقل من الجزائر أو الإسكندرية, كما يساهم وجود الجبال بجوارها في تغير درجة الحرارة. هناك العديد من المقيمين الأوروبيين هنا ، وهناك تواصل مستمر ومباشر مع إنجلترا عن طريق السفن التجارية اما القوارب البخارية الحكومية فتأتي مرة في كل شهر ,ومع مصر هناك تواصل يومي".

ثم ينتقل "فارلي" الى شرح مفصل وموسّع لمناخ بيروت وتقلباته على مدار السنة , مقدما خيارات ممتعة للهروب من حر صيفها الى أماكن أكثر علوا وبرودة , فيقول أن "المناخ ، في

أكتوبر ونوفمبر وديسمبر ، يشبه إلى حد كبير مناخ مايو ويونيو. العواصف البحرية قليلة والمطر الخفيف يتساقط في بعض الأحيان.

في يناير وفبراير ، تهطل الأمطار بغزارة ، و تجري السيول التي لا نراها في إنجلترا. ولكن على الرغم من ذلك ، فإن الهواء يكون دائما دافئًا ، ونادراً ما تنحجب السماء الزرقاء لمدة زمنية طويلة.

أما في شهور مارس وأبريل ومايو ويونيو فترتفع درجات الحرارة, ولكن يبقى أن الشهرين الأخيرين يبقيان الأكثر سحراً ، حيث تبدو الطبيعة ، التي ينهمر عليها المطر الخفيف كالرذاذ أحيانا ، تبدو مشرقة ومبهجة ومفعمة بالحيوية ,ويتجدد "العشب الأخضر و الزمردي" مرة أخرى ، ويُزهر الصبّار على الطرقات ، في حين تتفتح زهور أشجار البرتقال وتُحمّل الهواء بعطرها.

أشهر يوليو وأغسطس وسبتمبر تكون أكثر دفئًا من أي شهر في إنجلترا ، ومع ذلك, يوفّر جبل لبنان ملاذا أخرا لمناخ قد تبحث عنه . وفيما يبقى العديد من السكان الإنجليز والفرنسيين في بيروت خلال الصيف بأكمله ، فإن أكثرهم يرسلون زوجاتهم وأطفالهم إلى بيت مري أو برمانا أو شملان .

تبعد بيت مري عن بيروت حوالي ساعتين ، وبرمانا حوالي ساعتين ونصف ، وشملان خمس ساعات. حيث المناخ هناك , يشبه مناخ الصيف الإنجليزي الرائع ، وفي شملان يبقى الجو أكثر برودة".

تطور بيروت

ينقل لنا "جيمس لويس فارلي", ما رأه في بيروت من تطور وعمران حديث بدأ يجتاح المدينة مع توسع الأعمال, وزيادة أنشطة التجارة سواء كانت محلية أو إقليمية أو عالمية , خلال فترة اقامته, ويقول هنا :" خلال فترة إقامتي التي امتدت الى أقل من عامين في بيروت, اُنشئت شوارع جديدة ، وبُنيت عمارات كبيرة في جهة رأس بيروت , كما افتُتحت مقاهي جديدة و زوّدت كما فهمت بطاولات "البلياردو" الجيدة".

وينقل لنا صورة حيّة عن ما شهدته بيروت في هذه الحقبة , حتى تبدو لنا وكأنها ورشة تطوير و اعمار ضخمة نقلت بيروت من بلدة بسيطة هامشية على شاطئ البحر , الى حاضرة عامرة و نقطة جذب تجارية رائدة , فيقول :"هُدمت مجموعة من البيوت القديمة والقريبة من فندق (Hotel de Belle Vue)، وفي مكانها يمكن الأن رؤية شقق رائعة تُستخدم كمكاتب تجارية يشغل بعضها تجار أنجليز , وفي خارج المدينة , أعمال البناء مستمرة الى حد ما , ومنها قصر أميري لأحد أغنياء اسرة بسترس , ومنزل آخر رائع وعظيم لآل مشاقة والذي يعود الفضل في اناقة تصميمه الى مهندس أوروبي".

ثم يلمح "فارلي" الى تطور مثير على الصعيد الاجتماعي نتج عن الانفتاح على الأوروبيين , بدءا بالقناصل الذي سكنوا بيروت كممثلين لبلادهم أو كوافدين سكنوا المدينة وأثّروا في أهلها, فيقول :" السكان الأصليون بدأوا يكتسبون الأذواق والأراء الأوروبية بسرعة, ومعظم التجار الأثرياء الذين زاروا أوروبا تخلوا عن أزيائهم الشرقية و بدأوا بارتداء الثياب الأوروبية كما ان المنازل أصبحت تؤثث بحسب أسلوب باريس ولندن".

ويلمح "فارلي" الى دور ميناء بيروت و هو بوابة التواصل الأهم مع العالم ومفتاح التطور الاقتصادي , فيقول :"بعض الأمثلة تشير الى الزيادة السريعة في التجارة في بيروت خلال السنوات القليلة الماضية, ومن الطبيعي الآن رؤية ست أو سبع سفن بخارية في الميناء في وقت واحد , وبينما لم يكن هناك أي خط بحري بين بيروت وأوروبا على الإطلاق منذ أكثر من خمسة عشر عامًا. يغادر الآن البريد من لندن إلى (هنا) كل يوم جمعة عن طريق مرسيليا ، وتعمل البواخر الإنجليزية بانتظام بين بيروت وليفربول".

ثم يتحدث عن تنوع الضائع والسلع الواصلة الى بيروت حتى انها تلبي جميع طلبات الأجانب فيها وحاجاتهم, فيقول :"قبل بضع سنوات كانت الواردات تقتصر بشكل رئيسي على سلع مُنتجة في مانشستر ، والتي حلت تدريجيا محل الحرير الذي كانت ترتديه هنا سابقًا جميع فئات السكان, وأصبحت الواردات في الوقت الحالي متنوعة ، لدرجة أنه لا يوجد أي شيء يطلبه الأوروبيون الا ويمكن الحصول عليه على الفور في الأسواق", وهنا , وكعادة المواد المستوردة التي ترتفع أثمانها حتى زمننا هذا , ينبه "فارلي" الى ان الأجنبي في بيروت سيكون عليه أن يدفع أحيانا سعرا أعلى للسلع التي يرغب بها, ومقدما اعلانا مجانيا لمؤسسة في بيروت قد يرتاح الأجانب الى التعامل معها, قائلاً:" قد يضطر الأجنبي الى دفع مبلغ أكثر بكثير من قيمة السلع التي قد يرغب فيها ، إلا أنه لا تزال هناك مؤسسات يُحدّد ويثبّت فيها سعر كل سلعة , كالتي يديرها السيد نجّار ورغم انه من سكان بيروت ، فهو يتحدث الإنجليزية بشكل ممتاز, ويمارس عمله بناءً على هذا المبدأ ، فيرضي عملائه بشكل عام ويحقق نجاحا جيدا".

ويتابع "فارلي" الحديث عن تطور و ازدهار المدينة ويصفها بطائر خرافي ينهض من موته ورماده , فيقول :"بيروت هي ميناء دمشق ، وهي الوحيدة الآمنة والملائمة في المنطقة الممتدة من الإسكندرية إلى اسكندرون, وعلاوة على ذلك ، فهي قريبة ، ويمكن الوصول إليها بسهولة من قبل سكان كل سوريا. ومن هنا جاءت حالتها المزدهرة والتزايد المستمر في تجارتها وثروتها, فتبدو وكأنها مدينة جديدة ، نهضت في السنوات القليلة الماضية من تحت الأنقاض ، مثل طائر الفينيق يثب من تحت الرماد".

هذه العبارات المنمقة , تسحرنا وتمنحنا فرصة لتخيّل المدينة المجدّة والمكافحة من أجل البقاء والتطور المستمر و مواكبة كل جديد , رغم كل ما واجهته و تواجهه عبر الازمان فيواصل "فارلي" كلامه:"لقد دخلت وسائل وأجهزة الحضارة الأوروبية الى بيروت , وعبّدت الشوارع ، وأُقيمت مستودعات فسيحة, ولقد أكد لي التجار الإنجليز المقيمين هنا ان تحسينات كبيرة حصلت خلال السنوات العشر الماضية ، وبسرعة كبيرة ، وعلى نطاق واسع للغاية , حتى أولئك الذين زاروا المدينة سابقا , سيجدون صعوبة في التعرف عليها بشكلها الحالي".
ما سبق, يؤكد لنا , ان "فارلي" كان مسوّقا نشيطا و ناجحا لبيروت , فهو أراد من معارفه والى من وصل كتابه لهم من الانكليز أن يقعوا أسرى أفكاره ومعلوماته , محفزا إياهم للقدوم الى بيروت و السكن فيها و انشاء الشركات و ممارسة التجارة والأعمال على أنواعها.

أسواق بيروت

نتجول في هذا الفصل مع "جيمس لويس فارلي" في أسواق بيروت أنذاك, فيصفها لنا بإسلوب لطيف وحالم , يداعب أذهاننا التي تبتكر صورا جميلة وحيّة عنها , فيقول :" هي أقل شأنا من أسواق إسطنبول أو القاهرة أو دمشق. ومع ذلك ، فإنها تستحق الزيارة ، ورؤية الحشود المتنوعة التي تملأها, وهي أسواق ذوات قناطر ومسقوفة توّفر ملاذا للمتنزهين ، وهي مليئة دائمًا بالأشخاص الذين يحضرون إما لقضاء أعمالهم , او الاسترخاء او التسكع فيها".

ثم ينقل لنا صورة طريفة , عن دكاكين ذلك الزمن وأصحابها قائلا :"سيُصدم الغريب هنا من صغر حجم هذه المحلات التجارية, لكن فائدتها أنه يُمكن للتجار العرب أن تصل أياديهم الى أي سلعة يطلبها عملاؤهم ، دون الاضطرار إلى وضع غليون التبغ جانبا وهو الرفيق الذي لا ينفصل عنهم ".

وأسواق بيروت لا تزدهر و لا يكتمل تألقها من دون متاجر صاغة الذهب و الفضة, التي وصفها "فارلي" بأنها مشوّقة ومثيرة للاهتمام ، حتى انه اعتبر زيارة هذه الأسواق و مراقبة الصاغة و هم يعملون على تصنيع و زركشة الفضة , وكذلك خواتم وأساور الذهب التي تشتهر بها بيروت بأنها "جائزة" تعوّض كثيرا عن الزحمة والضجيج الذي يصدر في الأسواق و خاصة في أوقات الصباح.

ونبقى مع "فارلي" الذي سينقل لنا مشهدا , ستفاجأ الكثيرون ممن يقرأون الأن هذه السطور , أنهم قد شاهدوا مثيلا لها في "البلد" أي وسط بيروت قبل اندلاع الحرب , حيث بسطات الخضار و الفاكهة و الخبز و الأسماك واللحوم , وأيضا , بسطات العصائر , فيقول :" البسطات هنا مرتّبة بدقة وتمنحك امكانية شراء كمية جيدة من الفاكهة اللذيذة بمبلغ زهيد ، لا سيما المشمش ، بنكهته الرائعة, أو تلك المشروبات المثلجة اللذيذة المصنوعة من عصير الليمون أو العنب أو الرمان ، أو أفضل من ذلك, تلك المصنوعة من بتلات الورد والبنفسج المحفوظة والتي تُستخرج عن طريق هرس الزهور وغليها بالسكر".

وكان "فارلي" وصف في مكان آخر من كتابه , كثرة الخير هنا , فيقول :" تكثر الخضروات من كل نوع, البازلاء ، والخس ، والبصل ، والخيار , وكلها فخمة لنضارتها ورائحتها, وفيما تورد الحدائق المحلية البرتقال والحامض , ترسل حلب الى هنا الفستق الشهير وترسل يافا البطيخ اللذيذ ومن دمشق الخوخ والكرز والدراق والمشمش من أفضل الأنواع".
هنا , يتوقف "فارلي" قليلا ليرمي بدفعة من الاحاسيس الجيّاشة تفاجئنا بكمية الحب التي يضمرها لهذا الجزء من العالم حيث يقول:" باختصار ، هنا كل شيء موجود بوفرة لتلبية

طلباتنا المادية ، ولتهدئة حواسنا ، ولسحر خيالنا. هنا يصبح الوجود متعة ، وما عليك فقط الّا أن تعيش, لتكون سعيدًا".

ونعود الى الواقع, حيث يذكرنا و ينبهنا , الى ان الشراء في هذه الأسواق يتطلب صلابة في التعامل مع التجار وعدم القبول بأول سعر يُعرض عليك , فيقول:"عادة ما يسأل التاجر هنا ضعف ما يجب أن يأخذه, وبالتالي سيكون من الجيد في البداية, أن تعرض عليه حوالي ثلث ما طلبه. ولأنه سيفهم مرادك تماما من دون أي شعور بالإهانة, سيبدأ بتخفيض السعر تدريجيًا وبحسب اصرارك .. حتى يتم الوصول أخيرًا إلى السعر الذي يرضي الطرفين وتُبرم الصفقة".

أما عن الصفقات ذوات القيم الأكبر, فهي تحتاج الى استراتيجيات و خطط وخبرات عالية لإبرامها , وهنا يقدم لنا "فارلي" وصفا فيه الكثير من التفاصيل والطرافة عن سير الأمور أنذاك , ومما حدث تحديدا مع ترجمانه , و اترككم معه ليقول:" الوقت ليس له قيمة هنا ، والحال مختلف تماما عن لندن ، فهنا , قد يستغرق إتمام صفقة أحيانا , عدة أيام. لقد أرسلت مرة المترجم لشراء سلعة ما ، ولكنه كان يعود ويخبرني عن سعرها فقط ومن دون الشراء , وعند السؤال عن السبب, كان يقول (انتظر حتى الغد ، السعر سيكون أرخص).

في اليوم الثاني يذهب الترجمان مرة أخرى , ورغم انه عُرض عليه سعر أقل , الا أنه لم يشتري , لأنه ينتظر أن يحصل على السعر أفضل يريده.

في اليوم الثالث يذهب و يمرّ بهدوء أمام المحل دون أن يلتقي البائع , متظاهرا انه مشغول بأمر آخر, الا أن البائع سرعان ما يستوقفه و يناديه , عارضا عليه لسان النرجيلة, ثم يحييان بعضهما البعض بلباقة , ويمرران اصابع أيديهم إلى شفاههم ثم صعودا الى جبابهما, ثم يتحدثان بشكل عرضي عن موضوع ما بعيد كل البعد عن ما يجول في عقليهما , و في الوقت الذي يدخنان فيه النرجيلة ، وربما ،يشربان القهوة , تتجدد المفاوضات الأصلية حول السلعة, ليصلان معا اخيرا الى سعر مقبول" .

اذن , ثلاثة أيام , استغرقت عملية شراء سلعة ما, وان دل ذلك على شيء , فهو منسوب الهدوء الذي كان سائدا , فلا عجلة في أي شيء ولا داعي للحث على سرعة , و إن لم تبرم الصفقة اليوم , ستتم غدا , كما ذكر "فارلي" الذي يتابع أمثلته ويقول :"أذكر ان المفاوضات لاستئجار البيت الذي أسكنه , أخذت من وقت الصديق الذي فاوض عليه, مدة شهر كامل من موعد وصولي, وكانت اللقاءات شبه يومية مع صاحب البيت ، وارى أنه لا داع لذكر عدد أكواب القهوة التي شُربت، ولا النراجيل التي دُخّنت, قبل الاتفاق النهائي".

اذكّر هنا ان كتاب "جيمس لويس فارلي" هو رحلة طويلة , تحفل بالكثير من التفاصيل والمعلومات ومنها موضوعي الصحة والطب في المدينة, وهو العالم بما كان يؤرق المسافرين الى الشرق انذاك و يشغل بالهم كثيرا , فيقول أنه في السابق , كان كتيب "دليل الشرق" والذي صدر في لندن في عام 1840 , ينصح المسافر بأن يأخذ معه أنواعا كثيرة من الأدوية , وصفها بأنها :"كميات من شأنها أن تساعد في تخزين صيدلية في بلدة ما" إضافة الى ضمادات ، وجص لاصق ، وإبر ، ومضخة معدة ، وكل شيء تقريبًا يمكن العثور عليه في محلات الأدوية, ولكن في بيروت يختلف الوضع, حيث يمكن للمريض "الحصول على أفضل استشارة طبية بسهولة على الفور, فقد عيّنت الحكومة الفرنسية الدكتور سوكيه , المقيم في بيروت منذ عدة سنوات , والذي يحظى باحترام كبير من الإنجليز وكذلك من الفرنسيين , ويوجد أيضا الدكتور سميث ، الذي يتمتع بسمعة طيبة للغاية من حيث المهارة الطبية والجراحية ، وتحبه السيدات السوريات كثيرا, وكذلك هناك أيضا كيميائي ممتاز في بيروت وهو السيد كرولا".

ويلفت "فارلي"ايضا النظر الى أمر مهم يشبه الى حد ما التحذير, فيقول :" أنه فيما بعض الأشخاص في إنجلترا ربما يميلون إلى إساءة استخدام الأدوية أو الى اجراء التجارب على بطونهم، فسيكون من المستحيل القيام بذلك في سوريا من دون عواقب" ويتابع قائلا :"و لسبب لا أستطيع أن أشرحه ، فقد وُجد أنه من المضرّ استخدام أدوية مصنوعة من مكونات قوية , ولذلك يتم وصف الكينين هنا , والمفيد أحيانا في الحمى المتقطعة (تنتج عن أمراض معدية) ، وهو الى جانب مسحوق دوفر (دواء كان مشهورا و مركبه الاساسي هو الأفيون) ، فهما يشكلان تقريبا الصيدلية الكاملة لبيروت, و يبدو أن الصحة العامة رغم المعاناة ، قد تحسنت نتيجة لذلك ولا يوجد قلق من أي شعور ألم مع التطور في مهنة الطب".

ولا ينسى "فارلي" الاشارة الى مستشفى أقامته راهبات المحبة في بيروت فيقول :"و لديهن أيضا مستشفى للمرضى الفقراء فيها حمامات كبيرة , وقد أقمن مؤخرًا مبنى كبيرا وهادئ ومخصصا فقط للغرباء الذين يصابون بالامراض اثناء وجودهم في بيروت, وهم بفضل خدمة الأخوات المتفانيات لهم ، لا يشعرون أبدا بغربتهم".
ثم يطرح "فارلي" رؤيته بأن الكثيرين من الأشخاص الحساسين سيستعيدون نشاطهم وصحتهم "تمامًا بعد إقامة قصيرة في هذا المناخ المبهج" كما قال , ولكنه ينصح دائما بتوخي الحذر و"تجنب البرودة بعد ممارسة التمارين وبلبس "الفانيلا " في جميع المواسم.

لا يتقاعس "فارلي" أبدا عن منح اقامته في بيروت معان نفسية و روحانية استنبطها من وجوده وسط طبيعة مختلفة و لكنها تأخذ الالباب , ويعتبر أن ما في بيروت له فوائد كثيرة على الصعيدين الصحي والمعنوي فيخبرنا أن "من أكبر الفوائد التي يمكن أن يحصل عليها المقيم في بيروت ، ربما ، هو ممارسة التمارين اليومية بشكل دائم في الهواء الطلق",
ويأخذنا معه بسرعة الى مشاهد يمكن وصفها بالفانتازيا قائلا :"في الصباح الباكر, و عندما تبدأ الطيور بإنشاد أغانيها , سيكون التنزه في غابة الصنوبر ، هو أكثر أمر صحي ومنشّط , حيث تكون حرارة الشمس معتدلة, والهواء بارد , و الزهور المنتعشة بقطرات الندى تطلق عطورها الفاتنة , وفي المساء أيضا , قبل غروب الشمس بحوالي ساعتين ، سيلاقيك النسيم البارد الذي يهب من الغرب على الرمال ، ويدعوك الى ركوب حصانك أو العدو بسرعة".

وان لم تكن وجهتك الى غابة الصنوبر (حرج بيروت) فهو يقترح علينا امرين آخرين فيهما من المتعة الكثير فيقول: "روعة وجمال المناخ هنا يجذبك دائمًا الى الهواء الطلق ، وعندما لا تمشي أو تركب الخيل ، يمكنك الجلوس إما على شرفة مكشوفة مطلة على الجبال ، أو على الشاطئ حيث حفاف الصخور الساكنة في حلم خيالي هادئ ولذيذ مع هدير خافت لموج البحر".

وصف رائع لمشهد اُقتطع من زمن عابر , يأسرنا بجماله حتى نتمنى لو نكون معه , نشاركه هذا الهدوء والصفاء الذين نفتقدهما في زحمة هذا العصر وضجيج أزماته التي لاتنتهي.

ثم يأخذنا "فارلي" الى مساحة روحانية يجيد الحديث عنها , فيعقد فيه قرانا أبديا بين الطبيعة والروح , وهو قران لا انفصام فيه , وهذا يذكرني بما قرأته في أحدى المرات عن دراسة أجرتها جامعة كنساس الأميركية , تبيّن فيها أن الأشخاص الذين يقضون أوقاتا طويلة في أحضان الطبيعة ويستمتعون بجمالها , ترتفع لديهم مستويات القدرة على رؤية الأمور على حقيقتها بشكل كبير , كما ينجحون في فهم المشاكل وابتكار الحلول بنسبة خمسين في المئة.

يقول "فارلي" :" هنا ستهدأ تماما، وستنسى في السكينة والمشاهد المحببة أمامك , صراعات وانفعالات الحياة. فكرك ودماغك الذي لا يتوقف عن العمل سيكف هنا عن رغبات الطموح التافه ، ويُدخل هدوء الطبيعة المحيطة بك الى روحك ، وستشعر كم هي سطحية وقديمة ، وغير مربحة كل هذه الرغبات والتطلعات العبثية التي تقودك في هذا السباق الشرس في الحياة".

لا اريد أبدا أن اتوقف عن قراءة ما كتبه "فارلي" , فهو ينطق كوليّ متصوف , أشاح بوجهه عن مغريات الحياة و وضع أمام عينيه , هدفا سامياً لعبوديته الكاملة أمام عظمة الله و جميل صنعه , وهذا مما ذكره ابن رشد , من أن معرفة الله تأتي من آياته و مخلوقاته.

هنا , يحاول "فارلي" ان يوقظ بعض الغافلين , الذين انساقوا وراء أوهام وأضغاث أحلام , أو رفعوا كثيرا من سقف مرادهم بعيدا عن الايمان والاستعانة بعظمة الله , فيقول :"الهدف الذي بدا لك من قبل انه مغطى بالزهور ، وجذبك إلى بذل مجهود متواصل ، يظهر لك هنا عاريا وذابلا , والجائزة التي بدت لك فخمة جدا ، ستتلاشى وتصبح تافهة". "هنا ، وأنت محاط بمثل هذه المشاهد ، يغيب العالم من قلبك وترى حضور الله في كل مكان ؛ يتكلم إليك من خلال جلال قمم تلك الجبال العظيمة المغطاة بالثلوج الأبدية. و من خلال النسمات الناعمة المحمّلة بالعطور تأتي الأصوات المنبعثة من أبواب الجنة".

انها لحظات جميلة , هادئة , يلتقط فيها "فارلي" انتباهنا ويأسر وعينا داعيا الى مقارنة ملفتة للنظر , تستحق التفكر واعمال العقل فيها طويلا فيقول:"واذا نظرت للأمر بشوق ، وقارنت بين متع الأرض وملذاتها , فانك ستتذكر قول الشاعر ، أن "دقيقة واحدة في الجنة تساوي كل هذا".

يروي "فارلي" ان غابة الصنوبر في بيروت سُميت باسم الأمير الدرزي فخر الدين , معتبراً إياها " المكان المفضل للتنزه للأوروبيين والسكان المحليين".
ومن خلال ما سنقرأه , سنعرف أن غابة الصنوبر لم تكن أبدا مكانا مبتذلا , بدليل ان كبار ممثلي و مندوبي الدول , وسيدات و آنسات كثر من الأجانب , إضافة الى اهالي المدينة كانوا يأتون اليها لتمضية الوقت و الاستمتاع بطبيعتها و مناظرها ومناخها.

يقول "فارلي" ان "السكان الإنجليز والفرنسيين يأتون على ظهور الخيول في فترة بعد الظهر الى غابة الصنوبر التي تشبه تماما منتزه "روتن رو" في لندن , وترى هنا أيضا زوجة القنصل العام النمساوي على حمارها الأبيض الجميل, و ممثل روسيا وزوجته يسبقهما قوّاص, ومع ابنته اللطيفة يأتي ايضا القنصل العام الإنجليزي بأناقته الكاملة كمثال للرجل الإنجليزي النموذجي ، والذي بحكم رتبته ومكانته المعروفة يمكن لأي كان معرفته دون الحاجة الى الظن أو التخمين".
يعلّل"فارلي" اندفاع الناس بمختلف جنسياتهم ومراتبهم ومستوياتهم الاجتماعية الى هذه الغابة فيقول "لا عجب أن يأتي الجميع إلى هذا المكان الذي يمثّل بدون استثناء, أجمل نزهة مسائية رأيتها في حياتي. من هنا يمكنك أن ترى في نفس الوقت أكثر الأشياء تنوعًا ، وأكثر المناظر الخلابة سحرا".
ونبقى مع "فارلي" لنرى بعينيه ما كان يراه في غابة صنوبر بيروت, فيقول :"على مسافة بعيدة توجد سلسلة من التلال المذهبة بأشعة الشمس ، وترى السطح الأزرق الداكن للبحر ، الذي يبدو بوضوح شفاف وكأنه سماء مقلوبة ، وكتل الجبال بقممها البيضاء ذات الرؤوس الثلجية وهي تشير إلى السماوات ، وجوانبها المغطاة بالغابات الكثيفة, وقريبا منك ترى النهر يلمع ويتعرج من خلال المساحات الطبيعية الغنية والمتنوعة ،حيث تنتشر أكواخ نصف مدفونة في أشجار البرتقال و كروم العنب".

ومن اللوحات التي نقلها لنا "فارلي" اثناء نزهته في تلك البقعة الساحرة من بيروت , وصفه للأنشطة التي كان يمارسها أهل المدينة وسكانها المحليين, فتشعر بنفسك واقفا هناك , تتلفت يمينا و يسارا لترى ما رآه , فيقول :" وفي نفس الوقت , يمتلىء المشهد بالعديد من اللوحات الغريبة ووقائع من الحياة الشرقية ، مجموعات من الأتراك يدخنون غلايينهم أمام المقهى المبني تحت شجرة مظللة ، أو يؤدون صلاتهم المسائية , وفرسان عرب يمارسون لعبة الجريد (رماح) على خيولهم ، في امتحان لكفاءاتهم التي تتطور بسرعة , وهنالك نساء وهن على ظهور الخيول، ووجوههن مغطاة بأحجبة بيضاء, كما ترى من حين لأخر بين الأشجار, قوافل الجمال المحمّلة بالبضائع الوفيرة وهي تتحرك متمايلة ببطء ، وفوق كل ذلك مدى أزرق شاسع وصاف ، وجو نقي ومبهج ورحب".

صحيفة وأعمال مصرفية

يذكر "جيمس لويس فارلي" في كتابه انه في الأول من كانون الثاني / يناير من العام الحالي (أي 1858) "صدر أول عدد من أول صحيفة تُنشر في سوريا باللغة العربية سميت بـ "حديقة الأخبار", واصفا إياها أنها حققت نجاحا جيدا ومذكراً ان محررها "شاب يُدعى خليل الخوري ، من مواليد بيروت ، وله سمعة كبيرة كشاعر".
ثم يشير "فارلي" الى الأهمية التي نالتها بيروت على المستوى الاقتصادي ويتحدث عن شركة مصرفية انجليزية , ولكن الأرجح انها لم تكن مصرفا بالمعنى الرسمي وانما مجرد مجموعة مقرضين يقدمون الديون وفق نسبة فوائد محددة وبضمانات معينة , ويقول : "شركة مصرفية إنجليزية فتحت فرعًا صغيرًا هنا ، لكنه ليس كافيا بأي حال من الأحوال لاحتياجات المدينة , فهناك مجال واسع لمصرفين أو ثلاثة جدد ، وبدلاً من أن يسببوا الضرر لبعضهم البعض ، سيتسنى لهم بناء علاقات مثمرة و متبادلة , اذا تأمن لهم إدارات مناسبة وماهرة".
ويحث "فارلي" على الاستثمار في القطاع المصرفي في بيروت ويروّج لرؤيته لدور بيروت المالي الذي سيهد نموا كبيرا مع السنوات القادمة , فيذكر :"وفيما لا تملك دمشق وحلب أي مؤسسات لخدمات مصرفية , فإن إنشاء بنك إنجليزي في بيروت ، مع فروع له في تلك المدن ، سيحقق أرباحًا كبيرة جدًا ، ويتحقق في الوقت نفسه فوائد مهمة للتجارة و التبادل التجاري في البلاد".

و يشرح لنا "فارلي" في فقرات أخرى تفاصيل الاعمال المالية و طريقتها و نسبها فيقول :"يبلغ معدل الفوائد على القروض لمدة تشغيل لا تزيد عن تسعين يومًا حوالي ستة عشرة في المائة بالسنة, ولكن في الأسواق, يفرض الصرافون المحليون أو المصرفيون ما بين أربعة وعشرين إلى ستة وثلاثين في المائة, في السنة" وعن الضمانات يقول "فارلي" ان الضمان "يتطلب الأراضي أو المنازل أو البضائع أو الحلي الذهبية".

ثم يتطرق "فارلي" الى موضوع اقتصادي و مالي مهم , ويعلن ان في هذه المنطقة ثروات كبيرة متراكمة , و لكنها غير منتجة , كما ان السكان المحليين لا يملكون ثقافة الاستثمار و تحقيق الأرباح , ويطرح وجهة نظره فيقول :" ثروات كبيرة متراكمة هنا في المدن , ولكن يجب أن يوضع في الاعتبار أن الثروة ليست رأس مال, والذهب غير منتج ، بل لا قيمة له, لأن "جوهر الثروة يأتي من القدرة على تأمين الاحتياجات وتلبية رغبات الناس, وليس في القدرة على التراكم". يعني ذلك انه, فقط , عندما تستخدم الثروة لغرض التكاثر تصبح مفيدة حقًا ، وتأخذ اسم رأس المال, و يوجد في سوريا قدر كبير من الثروة ، لكن رأس المال قليل للغاية".

ونحن نعيش في زمن قلّ فيه الأمن وتلاشى شعور الاطمئنان وأصبح الواحد منا يخشى محيطه ولا يأمن لأحد , نتوقف مع "جيمس لويس فارلي" مدهوشين وهو يصف الأمان في بيروت في منتصف القرن التاسع عشر, ويقول في احدى فقرات كتابه :"الحياة والممتلكات آمنة تمامًا في بيروت, والقتل والسطو وغيرهما من الجرائم المألوفة في المدن الأوروبية ، غير معروفان هنا ، وقد تسافر في جميع أنحاء هذا الجزء من سوريا بدون حماية تمامًا ,من دون أن تتعرض لأي خطر أو مضايقة".

لم يكتفي "فارلي" بما قاله عن نعمة الأمن التي كانت سائدة آنذاك , وانما ساق الينا دليلا أو مثالا حيّاً فيقول :" كان من دواعي سروري أن ألتقي بسيدة شابة في فندق (Belle Vue) في رأس بيروت ، اسمها الأنسة كوب ، وهي سافرت في أجزاء كبيرة من فلسطين وسوريا بمفردها , ولكنها كانت في بعض الأوقات مضطرة الى الاعتماد على خدمات مدفوعة لدليل سياحي , وفي طريقها, التقت مجموعات من السواح الذين استقبلوها دائمًا بسرور , وهي من الأشخاص الذين نادرا ما التقي بأمثالهم من حيث ظرافتها , ولطفها واطلاعها في شؤون السفر. كما انها استأجرت في بيروت مرشدًا سياحيا ، أوصى به القنصل الإنجليزي ، وقامت برحلة لمدة أسبوع إلى بعلبك ، وكما في كل مكان , فقد لاقت الكثير من إشارات المجاملة والاحترام".

وبعد أن قدم لنا مثالا عن امرأة تسافر آمنة مطمئنة لوحدها في هذا الجزء من العالم , ذكر لنا ما حصل معه شخصيا كأجنبي يعيش في وسط بيئة مغايرة في السلوك والأعراف فيقول:"خلال صيف عام 1857 ، استأجرت منزلاً صغيرًا منعزلا كليا ومحاطًا بأشجار التوت ، على أطراف منطقة رملية تسمى الصحراء الصغيرة ، وبعيدا عن أي مسكن أوروبي الطابع, كان حصاني يبقى مربوطا امام البيت طول الليل في الهواء الطلق, بينما خادمي عباس ، يعود مساءً إلى بيته وعائلته ، وانا أنام في المنزل بمفردي في أمان أكثر بكثير مما أكون عليه في ضواحي لندن".

ويروي لنا "فارلي" بعد ذلك كيف صرف سائسه من الخدمة بعدما تأكد أنه لا يبقى ليلا في الخيمة المخصصة له قرب البيت لحمايته , ويقول :"على أي حال ، و في ظل هذه الظروف ، فهو عديم الفائدة تمامًا فصرفته ، وبقيت بعد ذلك بمفردي ، دون أي مخاوف ، وفي أمان كامل".

ويواصل "فارلي" ضرب أمثلة عن الأمن الذي كان شائعا أنذاك ٬ فيقول :"لقد ذهبت على حصاني في كثير من الأحيان وتحت ضوء القمر من بيروت الى نهر الكلب ، ومن بيروت إلى

الجبال حتى بيت مري ، مع خوف وخطر أقلّين مما لو كنت أسير في شارع ريجنت (شارع تسوّق مشهور في لندن)".

ثم ينتقل بنا "فارلي" ليحدثنا عن سهراته ولقاءاته مع الاصدقاء , فيقول :"ومن بين الذكريات الجميلة التي تسكن في ذاكرتي , أكثر لطفا من تلك النزهات الساحرة تحت النجوم الساطعة ، عندما كنت أعود إلى المنزل بعد قضاء السهرة مع الأصدقاء المضيافين والذي من حسن حظي انني أعرفهم".

ويتابع مقدما لنا وصفا لتلك السهرات :"مجتمع بيروت ، وعلى الرغم من أنه محدود , الا أنه لطيف للغاية, والسكان الفرنسيون هنا كثيرون ، والعديد من السيدات المتزوجات لديهن أمسية في كل أسبوع لحفلات الاستقبال ، حيث يمر الوقت بشكل ممتع للغاية في الكلام والغناء والرقص ؛ بينما الرجال الأكبر سنّاً يجدون في مائدة ورق اللعب تسلية صامتة ورصينة".

ويمضي "فارلي" في الحديث عن "سيدات الأمسيات اللواتي يتنافسن في الذكاء والجمال والإنجازات (يذكر الكاتب الأحرف الأولى من بعض اسمائهن) , ومنهن من يملكن أصواتا ساحرة ,في حين أن أخلاقهن الجذابة وفضائلهن الوطنية تتطلب تقدير واحترام جميع الذين يعرفونهن".

واضافة الى الفرنسيين , يذكر "فارلي" ان "المقيمين الأنكليز هنا ليسوا كثيرين وهم فقط القنصل العام مع عائلته ونائب القنصل و ضابط متقاعد من رتبة عالية تزوج واستقر هنا, والسيد بلاك المشهور جدا في سوريا , لمبادىء نزاهته واستقامته في العمل التجاري , والسيدان هيلد و ريدّل المحافظين على الصفات الشريفة للتجار الإنكليز اضافة الى اللباقة وحسن الضيافة..

وإلى جانب هؤلاء, هناك أربعة أو خمسة تجار آخرين مع عائلاتهم وموظفيهم ، وسيدة تدير مدرسة تمهيدية للأطفال, وأيضا طبيب , اسمه الدكتور سميث , يقيم في بيروت أيضا".

بيت وحديقة

نعود في هذا الفصل مع "جيمس لويس فارلي" الى زمن وصوله الى بيروت واستقراره في بيت بيروتي راق وجميل أُعد له للسكن مع زملائه في العمل.
يقول :"بيتنا هنا هو الأعلى والأكثر بروزا في بيروت, فهو يقع في مكان رائع ، ومن نوافذه ، أو خاصة من على سطحه المنبسط، يُمكن رؤية أكثر المناظر الساحرة للبحر والجبل , ومن الشرفة العلوية نطل فعليا على جميع المنازل الأخرى في حيّنا. وحيث إن باحاتهم المفتوحة على جميع الغرف ،هي مكشوفة ، فلدينا فرصة ممتازة للتعرف جيدًا على التنسيق الداخلي لبيوت السوريين".

وهنا , لا يتورّع "فارلي" من ان يروي لنا ما يراه في بيوت جيرانه , في زمن كانت هذه الأمور من المنكرات وسوء الأخلاق , حيث ان للبيوت حرماتها التي يجب أن لا تُنتهك , ويقول :"نرى السيدات في بيوتهن بدون حجاباتهن ، أو الأغطية التي يتلففن بها عند الخروج الى الشوارع. من جهة يوجد منزل مسلم ، وعلى الجهة الأخرى منزل مسيحي مكشوف بالكامل، وامامنا يوجد منزل تاجر يوناني ثري ،حيث نرى بناته الجميلات يتمتعن بنسيم المساء البارد على الشرفة المسقوفة".

ثم , ندخل معه الى بيته الذي كان يشغله سابقا عائلة رجل تركي كبير في السن , وهو يستحق الوصف كما قال "فارلي" لأنه "يختلف تماما عن أي بيت في أوروبا" ويعرفنا على أقسامه و غرفه و التصاميم الفنية و الزركشات الملون للجدران والأسقف , ونتركه لينقل لنا بنفسه صورا ومشاهد حيّة ودقيقة :"يقع المنزل في حديقة جميلة جداً مليئة بأشجار البرتقال ، والتي يمكنني قطف ثمارها الذهبية بمجرد مد يدي من أحدى نوافذ غرفة الجلوس, كما يوجد في الحديقة حوض تسبح فيه سمكات ذهبية و أخرى فضية في هدوء وطمأنينة , و تتدفق اليه الماء من جدول دائم الجريان.
وفي الحديقة, يوجد غزالان جميلان ، وخنزير بري صغير لا يسبب أي ضرر يتعدى التهامه لأحد الطيور اذا ما حطّ بالقرب منه.
المدخل عبارة عن ممر ضيق ومقوّس ، مع مجموعة من الدرجات التي تؤدي الى فناء كبير مفتوح في الهواء , وهو مرصوف بالرخام ، وحوله غرف الجلوس الرئيسية ، و فوقها غرف النوم . وفي الطرف الشمالي هناك طابق آخر يتكون من غرفتين كبيرتين وراقيتين.
يقع المطبخ وقسم الخدم في الطابق الأرضي , أما الغرف في الطابق الأول فهي مخصصة للسيدات وهي مزينة بشكل متقن للغاية".
ويتابع "فارلي" فيقول :" أما الغرفة التي يستخدمها زميلي للرسم فهي عالية للغاية ، حيث يبلغ ارتفاعها عشرين قدمًا و تطل نوافذها على جزء من الحديقة , ومن جهة أخرى ، يوجد جدران مزيّنة بنقوش جميلة من خشب الأرز ومزوّدة بخزائن ايضا من نفس الخشب, كما يوجد في الطرف الغربي مضجع ، يفصلها عن الجزء السفلي للبيت درابزين أنيق من

خشب الأرز المنحوت بشكل متقن.

وعلى جانب هذا المضجع , يوجد سلم يؤدي إلى شرفة تطل على الغرفة ومحمية أيضًا بدرابزين, وقد أستُخدمت من قبل شاغليها السابقين لتخزين فراشهم خلال النهار.
وفي الطرف الشرقي من الغرفة توجد شرفة مماثلة ، تتطابق تمامًا مع الأخرى ، ولكن بدون أي سلالم تؤدي إليها, و اكتشفنا أن العوارض المكشوفة لهذه الغرفة ، هي أيضا مصنوعة من خشب الأرز مثل بقية الأعمال الخشبية في الغرف الأخرى.

غرفة الجلوس ، هي أكثر قسم مريح وجدرانها مرسوم عليها ورود ، وتطل نوافذها على الحديقة , وعلى اليسار عند دخولك يوجد مضجع مشابه للذي يوجد في الغرفة الأخرى ، ولكنه أصغر حجماً ، أما نقوشه الخشبية فهي مطلية بالالوان بدلاً من صنعها من خشب الأرز.

على الجانب الغربي ، تطل النوافذ على الحديقة ، وكما قلت ، يمكنني التقاط البرتقال اللذيذ بمجرد مد يدي, وعلى الجانب الآخر ، الجدران مزوّدة أيضًا بخزائن ، وعلى الجدران التي تفصل بين النوافذ رسوم جميلة لزهور تبدو وكأنها طبيعية , أما العوارض في السقف فهي على عكس تلك الموصوفة من قبل ، فهذه مزينة برسوم الورود والزهور ، وحول الغرفة بأكملها ، وبمحاذاة افريزها . كتابات من آيات من القرآن باللغة العربية.
ولكن الأكثر بهجة في هذا البيت , هو الديوان الموجود في الطرف الشمالي وفيه نوافذ , الغربية تطل على الحديقة ، بينما من الجهة الشرقية فيوجد إطلالة جميلة على البحر والجبال معا, وزُيّنت جدران هذه الغرفة من جميع النواحي بأعمال خشبية تشكل كوات مطلية بذوق ، وفيها اعتادت السيدات على وضع الأدوات الزجاجية ، والأكواب الفضية وغيرها من التحف المتنوعة.

هنا , تعلمت الجلوس متكأً على الطريقة التركية, وفيما أنا أدخن النرجيلة ، واتأمل في المشهد الجميل أمامي ، افكّر مع شعور باللهفة بالمسافة التي تفصلني عن أحبتي , وأتخيّل صورة لليوم الذي سأرى فيه وجوههم السعيدة من حولي.

والى جانب الديوان يوجد غرفة صغيرة , يستخدمها زميلي للدراسة , وأخرى نستخدمها للطعام في حال كان الطقس باردا ,وفي مقابل الفناء الخارجي يوجد غرفة المؤن و فيها يحضّر الخادم القهوة.

أما غرف النوم ، فكلها كبيرة وواسعة ، وتصل اليها عن طريق سلالم من الفناء المكشوف ، واذا أكملت تصعد إلى شرفة مفتوحة ، التي تتسلق منها إلى السطح وهو أعلى سقف للمنزل.

ويحيط بهذه الشرفة درابزينات قوية من الخشب المطلي باللون الأخضر ، وتشرف على منظر أكثر اتساعا , فإلى الغرب تمتد منطقة راس بيروت بعيدًا حتى تفقد نفسها في الرمال, وفي الشرق يرتفع جبل لبنان بعظمة مهيبة, وإلى الجنوب ، تمتد الفلل ذات الجدران البيضاء وتتلاصق مع بساتين التوت والحدائق وتتسع الى مسافة بعيدة حتى تصل الى غابة الصنوبر . وأمامك ينام البحر الأبيض المتوسط ، الذي تنتشر فيه السفن الشراعية والبخارية بسكون , وتتصاعد من بعضها السنةٍ من البخار ، فتبدو وكأنها بقع سوداء على امتداد الأزرق الواسع.

راس بيروت

يروي"جيمس لويس فارلي" مشاهداته على طول شاطئ راس بيروت , و يصفه لنا بسحر وجمال غير مسبوقين فيقول:

"كل شيء هنا يتناقض بشكل غريب مع ما اعتدنا عليه في أوروبا. الموارنة والأرمن والدروز والترك واليونانيين والعرب و البدو المتجولين بأزيائهم الخلابة وعيونهم المضطربة ؛ جميع الصور الغريبة والروايات عن الحياة في الشرق تشاهدها هنا يوميًا في الأسواق ، موفرّة مشهدًا متغيرًا بشكل دائم من التسلية.

التباين الأكبر هنا هو في المناخ, فمن أيلول لندن حيث الرطوبة والضباب ، والأبخرة الخانقة ذات اللون النحاسي الى أيلول بيروت حيث السماء الزرقاء ، والجو الصافي ، وأشعة الشمس الساطعة.

هنا في سوريا تتنوع عوامل الجذب, ولكن أهمها هو سحرها العظيم أي الشمس , التي لن ترى مثلها اذا لم تزر الشرق , فهنا تراها تنعكس على كل شيء وتشعر بها ويمتلىء قلبك بها , أما العتمة فهي تشبه شفق الفجر في أي مكان آخر.

هنا , كل أحاسيسك تتغيّر , وكل شعور وتفكير يصبحان في الحال , أكثر اشراقا ومرحا.

كل الاهتمام والقلق الذين يحاصرانك سيضمحلان من قلبك كما لو أنه سحر يرفعك لتحلق فوق الأرض وتتنفس هواء الجنان.

من الأشياء المحببة هنا , المشي باتجاه الغرب من المدينة ، على طول شاطئ البحر ، حيث رأس بيروت.

هنا ، وعند مرورك بالمقاهي المختلفة ، يمكنك تأمل الأزياء الخلابة للناس ، ومراقبة سهولة وكياسة سلوكهم ، وهم يحتسون قهوتهم ويدخنون التبغ ذو الرائحة العطرة والمنتج في جبيل.

البعض يبقى في داخل االمقهى ، والبعض الآخر يضجع خارجا على العشب ، أو يجلسون على الصخور المطلّة على البحر ، مشكّلين في كل المكان مجموعات هي الأكثر تنوعًا وجمالا .

بعيدًا قليلاً عن القنصلية الفرنسية ، ومروراً بمقبرة للمسلمين الى جهة اليمين , يوجد حوض بناء السفن ، حيث يعمل عدد كبير من الرجال باستمرار في صناعة السفن, التي تزدهر بشكل كبير ، و تزوّد بيروت التجارة البحرية بسفنها.

ينظر البحارة العرب إلى السفينة على أنها "عروس البحر" التي يجب أن تمر الى ذراعي البحر نقية وطاهرة ، ولذلك , فعندما يكتمل صنع السفينة و تصبح جاهزة للانطلاق ، فهم يراقبونها عن كثب ليلاً ونهارا ، حتى تُسلّم ، نقية وبلا عيب، إلى عريسها القوي أي البحر.

و في نفس الاتجاه, هناك المقبرة الفرنسية ، وبينها وبين مياه البحر , يوجد قبر قديم لشيخ, وبالقرب منه شجرة , عُلّق عليها قنديل يحرس القبر بنوره المرتجف.

والى الأمام ، هناك ميناء طبيعي صغير محمي بالصخور ، وفيه يأوي البحارة العرب مراكبهم في الطقس العاصف. وعلى زاوية من الشاطئ ، يوجد مقهى (De Belle Vue) ، حيث يمكن التمتع بواحد من أكثر المناظر الممتعة للمدينة والجبال.

في هذه الساعة لا شيء يمكن أن يتفوّق على جمال المنظر. فإلى الغرب ، تصبح السماء كصفيحة من الذهب المصقول ، تسلط بريقها على مياه البحر الى مسافة عدة أميال ، و تعكسها مرة أخرى كالمرآة.

و الى الشرق ، ترمي الشمس الهابطة بعض شعاع ضوئها على بيوت بيروت البيضاء وخلفها تظهر الجبال التي تتغير الوانها باستمرار , فهي تارة خضراء زاهية وتارة أخرى أرجوانية ، و في لحظة واحدة, تظهر الوديان العميقة للعيون من خلال الظلال الغامضة وتنتصب الأديرة من خلال التضاريس الواضحة في صورة لا يمكن ل"بوسين" أو "فيرنيه" أو "كلود لورين" تخيّلها ولا حتى في أحلامهم.

ومروراً بفندق (Hôtel de Belle Vue) ، يستمر المسار ضيقا ومتلويا ليأخذك الى شاطئ صخري حيث الفاخورة - وأيضا آبار من المياه العذبة – لتصبح المنطقة أوسع ، وتشكّل متنزهًا رائعًا حتى أقصى نقطة في الممر الصخري.

هناك أماكن قليلة مناسبة للسباحة في هذا الجزء من الشاطئ ، بسبب طبيعته الصخرية وأيضا بسبب الزيارات المتكررة لأسماك القرش, ولكن بعد اجتياز مصنع الفخار نزلت من الأرض المرتفعة إلى حافة الماء ، حيث وجدت مكانا صغيرا ورائعا للسباحة، شكّلته الطبيعة , وأحاطته بالصخور المرتفعة ، التي تبعد عنك أنظار الفضوليين والمتلصصين الوقحين، ويحميه رصيف من الصخور متجه نحو البحر ، حيث تتكسر الأمواج عليه ، وتملأ هذا الحوض الطبيعي الصغير , مع الحفاظ على مسافة مقبولة من الزائرين الشرهين والكريهين الذين ألمحت إليهم.

هذا الحوض الصغير عميق جدًا ، ولكنه صاف بحيث يمكنك رؤية قاعه, و هنا غالبا ما أستمتع برفاهية حمام الصباح.

في أقصى راس بيروت ، يرتفع الجرف مائتي قدم فوق مستوى البحر. وعلى مسافة خمسين قدمًا تقريبًا ، تبرز صخرة ضخمة ، تسمى جزيرة الحمام ، ترتفع قمتها الهائلة في عظمة موحشة , ويخترقها كهف طبيعي واسع بارتفاع ثلاثين قدمًا على الأقل ، تندفع فيه الأمواج أحيانًا بعنف صاخب.

هذا المكان جميل جدا, وخاصة عندما تغرب الشمس في بهائه وعظمته الهادئة.

غالبًا ما أمشي هنا برفقة زميلي في العمل والسفر الى الهند, و هو رفيق رائع حيث نجلس على الجرف ننظر باتجاه مدينتي صيدا وصور القديمتين ، مستمعا اليه بسرور يروي قصصا عن حوادث في حياة المخيم في الهند.

يتنوع التنزه بشكل ممتع خلال العودة إلى البيت عبر الرمال و الممرات المتعرجة ، ثم الخروج عند سفح التل أسفل الثكنات ، ودخول المدينة عن طريق البوابة المقابلة للقنصلية الإنجليزية".

تكاليف الحياة

استعرض "فارلي" في كتابه بعض المعلومات الإضافية عن تكاليف الحياة في بيروت , ونذكّر دائما , ان ما يتحدث عنه "فارلي" ليس هو كل ما كان يجري في بيروت , وانما فكره كان يذهب دائما باتجاه تعريف أبناء جلدته على جاذبية المدينة و إمكانية العيش فيها والعمل في التجارة.

يخبرنا انه في تشرين الأول \ أكتوبر من عام 1856 , أُنشىء ناد للكتاب بدعم من مقيمين إنجليز وآخرين فرنسيين والتي كانت تعتمد أساسا على المنشورات والكتب باللغات الأجنبية فيقول:" تصل المجلات الشهرية الرئيسية والنشرات الفصلية بانتظام من لندن ؛ وفي فترات معينة ، عندما تتوفر الأموال بشكل كافٍ ، يحق لكل عضو تسمية أي كتاب جديد يشاء ، لإضافته إلى المكتبة ، بشرط ألا تتجاوز كلفته نصف جنيه, وعندما يقرأ المشتركون في النادي جميع الكتب ، يتم التخلص منها بطريقة المزاد ، وتذهب العائدات إلى صندوق الاشتراك لتُخصص لشراء كتب جديدة".

ثم ينتقل للحديث عن الفنادق في بيروت وهذا موضوع يهم كل مسافر أو رحالة ، ويقول أن "كلاهما يحملان نفس الأسم (Hotel de Belle Vue) , الأول في داخل المدينة , يرتاده بشكل عام الفرنسيون ، والآخر على مسافة ليست بعيدة على شاطئ رأس بيروت ويملكه نقولا بسّول ، و هو عربي محترم للغاية ، ويفخر كثيرا بالدعم الذي يتلقاه من الأمريكيين و الإنجليز , ويتحدث بسّول بالإنجليزية بطلاقة , حيث عمل سابق كمترجم ، وخاصة لصالح الراحل "اليوت واربيتون" (روائي ورحالة ايرلندي) والذي رُويت عنه كثير من حكايات الود وطيبة القلب.
يعتبر هذا الفندق ، على الرغم من العديد من وسائل الراحة التي اعتاد عليها المسافر الإنجليزي , الا أنه الأفضل والأنظف في سوريا.
رسوم الإقامة فيه هي عشرة فرنكات في اليوم ، شاملة كل شيء ما عدا النبيذ. و يمكن إجراء الترتيبات للاقامة الشهرية برسوم أقل.
موقع الفندق جميل ويطل مباشرة على البحر. ومن على الشرفة الى جهة اليمين , وبعيدا عن مشهد المدينة وخليج سان جورج ، ترى العين صورة تفوق السحر لم ار لها مثيلا".
ومن جمال اطلالة الفندق , ينتقل "فارلي" للحديث عن أجارات البيوت في بيروت , فيقول انها تتراوح "من ثلاثة آلاف إلى ستة آلاف قرش سنويًا ويمكن بسهولة شراء أثاث من النوع العادي".

وطالما انك استأجرت بيتا و أمّنت له الأثاث , يقترح عليك "فارلي" بتوظيف من يخدمك و "أجور الخدم هي , للطاهي الجيد مائتان وخمسون قرشًا في الشهر , وللسائس والمصريون هم الأفضل, مائة وخمسون قرشًا شهريًا " وطبعا لا ينسى "فارلي" انه يتوجه

بكتابه الى طبقة اجتماعية متطلباتها مختلفة فيوصي " العائلات التي تفكر في الإقامة في بيروت بإحضار الطاهي وخادمة المنزل من بلادها".

بعد البيت والاثاث والخدم , جاء دور وسيلة النقل في ذلك الزمن , ويوضح :"يمكن شراء حصان صالح للخدمة مقابل مبلغ يتراوح من ألف إلى ألف وخمسمائة قرشا, فيما تبلغ تكلفة حفظ حصان واحد في اسطبلات "بيترليني" هي مائتان وخمسون قرشًا في الشهر ؛ ولكن بما أن الشعير رخيص جدًا ، يُمكن الاحتفاظ بخيلين في اسطبل واحد مقابل ثلاثمائة قرشا شهريًا, كما يمكن استئجار حصان من "بيترليني" مقابل ثلاثمائة قرشا في الشهر ، أو خمسة عشر قرشًا في اليوم".

ما يعرضه "فارلي" في كتابه, يوضح ان الحياة ستكون سهلة لمن يرغب في السكن في بيروت , وقد يسأل أحدهم , ما هي تكاليف الحياة أنذاك , و ما هو المبلغ الإجمالي الذي يتكبده الأجنبي للعيش في بيرون أنذاك , وهنا يمنحنا "فارلي" هذه الفرصة الذهبية فيقول :" إن ضروريات الحياة رخيصة للغاية في سوريا" ولا يكتفي بذلك , انما يستغرب كيف ان "العائلات ، التي سُمّيت متوسطة لا ترحل إلى بيروت , وهذه الفئة موجودة بكثرة, وبمبالغ تتراوح بين أربعة أو خمسة آلاف جنيه يمكن لها أن تقضي حياتها هنا , بدلا من محاولة عبثية لتلبية حاجاتها ، وإضاعة طاقاتها في صراع غير مثمر لمواكبة المظاهر في إنكلترا".

هل انتهت نصيحة "فارلي" , طبعا لا , فهو يعزف جيدا على الوتر الحساس , وتر المال الذي يشغل بال كل الناس , فيقول :"في سوريا ، قد لا يعيش هؤلاء الأشخاص بسهولة وراحة فحسب ، ولكنهم سيوفرون مبالغ كبيرة كل عام".

كل مجموعة بشرية , في منطقة جغرافية تمارس مجموعة من الطقوس في تقاليدها و عاداتها , وللزواج خصوصية , فيدخر الناس الغالي و النفيس لهذه المناسبة, و"فارلي" الذي عاش في بيروت , لن يغفل أبدا عن امتاعنا بمراسيم عرس في بيروت , فيصفها بأنها "مثيرة للاهتمام بالنسبة لشخص غريب ، يختلف عن عادات الناس في كل شيء تقريبًا " ويقول انه رافق صديقا له الى احدى الأمسيات التي تسبق حفل الزفاف عادة, وتستمر لعدة أيام في منزل الأب.
"عند دخولنا وجدنا الغرف مزدحمة باقارب العريس والعروس من الذكور والإناث , وحول الجدران امتدت ارائك منخفضة (تعرف بالديوان) جلس عليها الضيوف, وعلى اريكة مرتفعة في أقصى الطرف المواجه للباب ، جلست العروس , حيث قادونا للجلوس على مقعد بجانبها".

ويشرح لنا "فارلي" طريقة السلام على الحاضرين اثناء المرور بينهم, فيقول :"وبينما كنا نقترب من مكان جلوسنا , كنا نحيي الحاضرين بلمس قلوبنا باليد اليمنى ,ومن ثم شفاهنا وجباهنا", و أظن أنها طريقة رائعة وعملية وحميمة يجب استعادتها من الماضي واعتمادها في زمن الأوبئة و ضرورة التباعد الاجتماعي.

عن العروس يقول "فارلي" انه لا يسمح لها بالكلام والأكل خلال هذه الاحتفالات , ويقول انه :"حتى بعد الزواج ، يُفرض على االعروس صمتًا صارمًا لمدة شهر, وقد يتساهل البعض بالسماح لها بالتحدث إلى زوجها من حين لآخر" و يروي طرفة يرددها بعض الأزواج الساخرين انهم كانوا يرغبون لو يستمر هذا الصمت ويصبح دائما.

وبما أنه لا يكتمل أي عرس أو فرح الا بأنواع الضيافة, يقول "فارلي" ان الخدم كانوا يقدمون للحضور كميات وافرة من الحلويات و الفواكه إضافة الى القهوة,... ".

ويكمل "فارلي" فيعطينا صورة عن الهيئة التي ظهرت بها العروس التي "كانت جميلة للغاية وعمرها حوالي أربعة عشر عامًا ، ترتدي زيّا تقليديا من سترة مخملية مزركشة بالذهب بشكل فاحش, وشعرها كان مزيّنا بالإضافة إلى الألماس والأحجار الكريمة بكميات كبيرة من الزهور الطبيعية . وبينما كان جميع الضيوف يسلّون أنفسهم بالرقص والغناء ، جلست العروس ورأسها مائل وعيناها ثابتتان على الأرض".

وفي كل عرس للموسيقى حظ كبير , والآتها هنا هي الطبلة والكمان " وآلة وترية تنتج شيئًا مثل القيثارة" , ربما كانت العود , ويتابع "كان الموسيقيون يجلسون في زاوية ، بينما يستمر الضيوف بالتصفيق والغناء وكأنهم فرقة واحدة", ووصف أيضا , كيف أن النساء

كن يعزفن من وقت لآخر على مزامير , بطريقة لم تعجب "فارلي" لأنها " تبدو غريبة جدًا وجامحة للغاية", أما الموسيقى كلها فلم يتوان عن وصفها بأنها "همجية", وفيما الرجال كانوا يرقصون " بطريقة بارعة ورشيقة للغاية", كان نسوة يرقصن على التوالي وتبيّن له أنهن مستأجرات يؤدين مهمتي الرقص واطلاق الزغاريد في مناسبات كهذه.

مشهد الأمسية , اختصره "فارلي" بقوله :"الموسيقى الصاخبة ،و جوقة المغنين , والتصفيق وعزف النساء على المزامير ,ولمعان الذهب والألماس وسط دخان كثيف يتصاعد من عدد لا حصر له من الغلايين والاراكيل, كل ذلك شكّل صورة جعلتني أتخيّل نفسي في حفلة ترفيه من قصص "الف ليلة وليلة" العربية".

يبتعد "فارلي" قليلا عن صخب الاحتفال , فيخبرنا عن طقوس الزواج الذي يسبقه خطبة لمدة ستة شهور وهي ملزمة للطرفين , وليس للفتاة صوت في هذا الأمر , وفي حال رغب أحد الطرفين انهاء الخطبة , فعليه دفع مبلغ "المهر" كما قال , ويبدو أن "فارلي" فاته أو لم يخبره أحد أن عقد القران (كتب الكتاب كما كان يقال) كان جزءا من الخطبة , لأنه في حال نقضه يستوجب دفع "نصف المهر" وليس كله, بحسب الشريعة.

ونعود الى يوم العرس لنتابع حفل زفاف العروس إلى بيت زوجها , وهو يوم يحظى بأهمية كبيرة , ويصاحبه ضجيج كبير وشكليّات لا تُحصى, ونرى العروس مغطاة بشكل كامل بغطاء من الشاش الأحمر ، يسبقها موكب كبير في مقدمته رجال يحملون على خيولهم مهرها و أمتعة متنوعة, وكذلك رجال آخرون يتباهون بعصي بيضاء طويلة ، و يتنافسون مع بعضهم البعض من وقت لأخر في معركة وهمية , فيما يؤدي مهرج في الموكب حيلا و يسلّي الحاضرين و المارة .

يخبرنا "فارلي" أيضا ان هذه المواكب تحصل عادة في المساء , فتتوهج المشاعل النحاسية المشتعلة بقطن منقوع بالزيت , وتصدح أصوات قرع الطبول و الصنوج وزغاريد و صيحات النساء, أما العروس فتمشي تحت مظلة يحملها أربعة رجال , ويرافقها عدد من الفتيات العازبات لتصل أخيرا إلى بيت زوجها.

يتوقف "فارلي" قليلا ليعبّر عن وجهة نظر حول أوضاع النساء في الشرق آنذاك , فيقول:" خطأكبير أن نفترض أن النساء في الشرق يتعرضن بأي شكل من الأشكال لمعاملة سيئة أو أنهن مقيّدات في حريتهن. العكس هو الصحيح , فهن حرائر في منازلهن ,مثل سيدات أوروبا ، وبالتأكيد, هن أكثر سعادة" , ويفاجئنا برأي يعتقد البعض في عصرنا أنه كان محصورا فقط بالعرب أو اهل الشرق, فيقول :" تعليم الإناث في كثير من الحالات يسبب ضررا على الصحة والسعادة , ويصبح هدفهن مجرد إنجازات سطحية بعيدا عن كل ما هو مفيد,...., ويجعلهن ينسين الواقع ويهملن كل ما هو أساسي , ولا ينظرن الا الى المظاهر

والتصنّع والزيف, ويجعلهن يعشن للعالم, بدلاً من العيش من أجل أزواجهن وأطفالهن".

يتابع "فارلي" قائلا :"صحيح أن عقيدة الإسلام تعلن تفوّق الرجل على المرأة بهبة من الله , وانه على الزوجات أن يكنّ مطيعات وأن يحافظن على أسرار أزواجهن, ..., الا ان سلطة الزوج ليست مطلقة , فقد وضع النبي حدودًا لها لضمان سلام الأسرة " و هذه الحدود شرحها "فارلي" بالانكليزية عما فهمه من الأية الكريمة :" وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ (الآية 35 من سورة النساء).

ثم يتحدث "فارلي" عن الطلاق وحدوده وتبعاته وانه من سلطات الرجل, ولا ينكر ان حالاته وقوعه نادرة جدا, معلقا على تعدد الزوجات فيصفه بأنه "شر اجتماعي عظيم" مشيرا الى ان الإسلام ينصح دائما بزوجة واحدة.

احتفالات في بيروت

هذا الفصل خصصته لعرض ما أخبرنا عنه "فارلي" عن احتفالات ظاهرة في بيروت , ونبدأها أولا بمناسبة عيد الفطر .

يقول "فارلي" ان المدينة في هذا العيد الذي يستمر ثلاثة أيام, تكون مليئة بالحيوية , ومآذن المساجد تضيء بالأنوار ليلا , وترى صواريخ المفرقعات النارية تطلق في كل لحظة في الهواء , كما تختلط أصوات طلقات الأسلحة النارية بأصوات الطبول وهتافات الناس.
وفي العيد تمتلىء جميع المقاهي , وفي بعضها يروي (الحكواتيون) للحضور قصصا من "الف ليلة و ليلة"
وهم يقومون ويقعدون ممثلين روايتهم بإيماءات مناسبة وطبقات صوتية مختلفة.
و في مكان آخر, ينخرط رجال عراة يسترون عوراتهم فقط واجسامهم مدهونة بالزيت في مصارعة للتفاخر بالقوة. لا مكان للبراعة هنا , انما محاولات مضحكة ومستمرة لرمي بعضهم بعضا على الأرض, ومن ثم التنافس في شد الحبل , على أمل أن يحصل الفائز على تبرعات نقدية من المتفرجين .

ثم ينتقل "فارلي" للحديث عن احتفالين أوروبيين مهمين ونادرين في المدينة, يتمثل الأول في مأدبة , يستقبل بها القنصل الإنجليزي , المقيمين الانجليز , وهي حفلة قال عنها :" لا يمكن وصف ما فيها من ذوق واناقة, وضيافة حقيقية رشيقة وساحرة".

أما الاحتفال الثاني , فهو حفلة راقصة كبيرة , أقامها ممثل الإمبراطور الفرنسي, في بيت القنصل الفرنسي دعا اليها الضباط الموجودين في الفرقاطة الفرنسية والميناء.
في القاعة الضخمة حيث عُلّقت الاعلام، عزفت فرقة السفينة خلال المساء أنواعا من الموسيقى الأوروبية مثل "المازوركا" و"البولكاس" و"اللانسرس".
كان بيت القنصل العام مضيئا بشكل كامل بمصابيح متنوعة ، والألعاب النارية كانت تُطلق في الفناء من وقت لآخر ، لتسلية حشد من العرب كانوا متجمعين في الخارج.
يصف "فارلي" الوضع فيقول :"المشهد ، كما يُرى من الشرفة ، كان جامحا ورائعًا الى أقصى الحدود. في الداخل ، أزياء الضباط البحريين ، والأزياء المحلية لقائم المقام (الحاكم المسيحي لجبل لبنان) وحاشيته، والألبسة الرسمية الغنية والمتنوعة للقناصل، وجمال وأناقة ملابس النساء , وبريق الألماس الذي ترتديه النساء السوريات, شكلت كلها صورة للحياة الشرقية يندر رؤيتها".

من مختارات الكتاب , نذهب مع "فارلي" في نزهة في شوارع بيروت , حيث يمر بالمقهى في الساحة الكبيرة ، مقابل بوابة يعقوب فيقول:"سوف تستمتع برؤية حشد من المتسكعين وهم يشربون القهوة ويدخنون. البعض تحت مظلة , والبعض الآخر يجلسون على مقاعد خشبية صغيرة على الرمال , وأمامهم خيولهم التي تقف بجانبهم أو تراها مقيدة على مسافة ما , كما ترى أولاد صغارا يتدحرجون على الرمال , فيما سلسلة من الإبل محملة بسلع مختلفة تتجه الى الأسواق ، أو بقطع خشبية ضخمة تنقلها الى حوض السفن , أما الحمير والبغال وهم ناقلات الشرق ، فتراها محمّلة بحجارة للبناء , وهي من بعض الأشياء الجديدة التي سوف تراها هنا".

ويتابع :"عند صعود التل ، تصل إلى الثكنات ، وهنا ستجد أفضل موقع في بيروت للحصول على منظر جميل ، اطلالة على المدينة وما بعدها حيث خليج سان جورج ، والرمال الصفراء الممتدة بعيدًا إلى نهر الكلب".

ومن نزهته السريعة في شوارع بيروت , ننتقل مع "فارلي" لنتعرف الى كيفية تمضية وقته بين العمل و البيت فيقول:"لشخص مولع بالإثارة بشكل غريب , ولشخص , تكون المسارح والحفلات الموسيقية والراقصة وما شابهها من أنشطة الاستجمام ضرورية في حياته، لن تكون الإقامة في بيروت سهلة.
هنا لا يوجد شيء مما ذكرته, او قد يحدث عرضيا . أسلوب حياتنا هنا بسيط للغاية.
نستيقظ بشكل عام عند الساعة الخامسة أو السادسة ، عندما يحضر الخادم لنا القهوة أو الشوكولاتة.
يفتح البنك في الساعة التاسعة ، وفي منتصف النهار لا يوجد عمل تجاري للتعامل معه , فنتناول الإفطار في الساعة الثانية عشرة.
يغلق البنك عند الساعة الرابعة عصرا ، عندما نذهب عادة لمدة ساعة أو ساعتين الى غابة الصنوبر ، ونعود عند الساعة السادسة والنصف لتناول العشاء في الفناء المكشوف.
في المساء , يزورنا بعض التجار الإنكليز أو الفرنسيين , او نزورهم بدورنا في بيوتهم, وتكلفة الترفيه مساءً ليست كبيرة ، لأن النرجيلة والقهوة هما المصروف الوحيد".

وهنا , يعود "فارلي" بالذاكرة الى سكنه في بيته لأول مرة , حيث كان مضطرا للتصرف بحسب عادات المدينة ودعوة الجيران القريبين والمهمين ويمنحنا فكرة عن طريقة التعارف :
"هنا قد تبقى لمدة اثني عشر شهرًا في بيتك ، وجارك يتجاهل وجودك اذا لم تزره بحسب اداب اللياقة هنا , ففي العادة , ان يدعو الساكن الجديد جيرانه لزيارته, فإذا ردوا بزيارة مماثلة , فهذا يعني بدء العلاقة الجيدة , واذا لم يحصل , فهذا يعني ان جارك غير مرتاح

لك ولا يرغب في معرفتك , كما يتطلب الأمر عناية ولباقة للقيام بهذه الزيارات بطريقة لا تضر بمشاعر أي شخص ، لأن الذين لم تشملهم قائمة الدعوة سيشعرون بالإهانة".
ويختم "فارلي" بالقول ان هذه الدعوات المتبادلة تمنح الوافدين الجدد فرصة المعرفة الشخصية مع الآخرين من جهة , و تمنح السكان المحليين في نفس الوقت فرصة اختيار أولئك الذين سيواصلون علاقاتهم معهم".

مع السلامة

يختم "فارلي" كتابه بفصل تحت عنوان "مع السلامة" وفيه يعتذر من كل الأصدقاء الذين رافقوه لمدة طويلة ، والذين سافروا معه الى أماكن كثيرة خلابة , لاضطراره لمغادرة بيروت و الرحيل عنها بسبب قضايا تتعلق بوظيفته في البنك العثماني, ولعدم قدرته على ان يكون مرشدا لهم اذا ما زاروا هذه البلاد وارادوا مشاهدة ما فيها من "روعة و جمال".

فهرس الصفحات

العنوان	الصفحة
المقدمة	1
الوصول الى بيروت	2
مناخ بيروت	4
تطور بيروت	6
أسواق بيروت	8
أطباء وأدوية	10
طبيعة و تفكر	11
غابة الصنوبر	13
صحيفة واعمال مصرفية	14
أمن وأمن وسهرات	15
بيت وحديقة	17
راس بيروت	20
تكاليف الحياة	23
عرس في بيروت	25
احتفالات في بيروت	28
ومضات سريعة	29
مع السلامة	30
فهرس الصفحات	31